حنين العرب الى بني أمية

لبندلي جوزي

الاستاذ في جامعة باكو في روسيا

—٢—

في يوم الحادي عشر (جمادى الاول) وذلك يوم الجمعة تودي في الجامعين بان الذمة بريئة من اجتمع من الناس على مناظرة او جدل وان من فعل ذلك احلّ بنفسه الضرب وتُقدّم الى الشرّاب والذين يسقون الماء في الجامعين ألاّ يترحموا على معاوية ولا يذكروه بخير ويحدث الناس ان الكتاب الذي امر المتضد باتشائه بلعن معاوية يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر . فلما صلى الناس الجمعة بادروا الى المقصورة ليسمعوا قراءة الكتاب فلم يقرأ »[1] ولعله لم يوضع يومئذٍ وانما وضع كتاب من هذا النوع في ايام المأمون وبقي محفوظاً في الديوان الى ايام المتضد فامر باخراجه ولسخه. واني لمورد منهُ العبارات الآتية تأييداً لما قدّمت واظهاراً لما كان استولى على بعض خلفاء بني العباس من الخوف عند ذكر بني امية والتحدث بمآثرهم. قال الطبري : « وقد انتهى الى امير المؤمنين ما عليه جماعة من العامة من شبهٍ قد دخلتهم في اديانهم وفساد قد لحقهم في معتقدهم وعصبيةٍ قد غلبت عليها اهواؤهم ولطقت بها السنتهم على غير معرفة ولا روية وقلدوا فيها قادة الضلالة بلا بيّنة ولا بصيرة وخالفوا السنن المتّبعة الى الاهواء المبتدعة ... خروجاً من الجماعة ومسارعة الى الفتنة وايثاراً للفرقة ونشتيتاً للكلمة واظهاراً لموالاة من قطع الله عنهُ الموالاة وبتر منهُ العصمة واخرجهُ من الملة وأوجب عليه اللعنة وتعظيماً لمن حقّر الله حقهُ واوهن امره واضعف ركنهُ من بني امية الشجرة الملعونة »[2] ثم افاض في بيان ضلال بني امية وكفرهم وفضل بني العباس على الامة العربية والدين وختم كتابه المملّ بحض الناس على لعن من لعنه الله ورسوله (؟) ومفارقة « من لا تنال القربة بالله الاّ بهم » ثم دعا هو « اللهم العن ابا سفيان بن حرب ومعاوية ابنه ويزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وولده اللهم العن أئمة الكفرة وقادة الضلالة واعداء الدين ومجاهدي الرسول ومغيّري الاحكام ومبدّلي الكتاب وسفاكي الدم الحرام »[3]

---

(١) الطبري ١١ : ٣٥٤ — ٣٥٥ (٢ الطبري ١١ : ٣٥٥—٣٥٦

(٣) الطبري ١١ : ٣٥٩

هذا كان سلاح بني العباس كما كان الدهر يعضهم وكانوا يضعفون عن مقاومة أعدائهم والتغلب على الصعوبات التي هم جنبوها على انفسهم بسوء سياستهم وهذه كانت حالة الامة العربية معهم في تلك الاحوال وكأني ببشار بن برد يعبّر عن هذا الشعور العام حين يقول :

بني امية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الدف والعود

أو بأحمد بن ابي لميم حين يصف يحيى قاضي القضاة في ايام المأمون بقصيدته السينية ومنها

لا احسب الجور يقضي وعلى الامة والبر من آل عباس

وقد بلغ كره بعضهم لبني العباس ان فضّل جور بني امية على جورهم وصار يتمنى لو يعود جور بني امية والى ذلك اشار الشاعر ابو عطاء بقوله :

فليت جور بني مروان عاد لنا وليت عدل بني العباس في النار[1]

وقال في هذا المعنى دعبل بن علي يهجو الرشيد :

ارى امية معذورين ان قتلوا ولا ارى لبني العباس من عذر[2]

ومما ساعد كثيراً على تعلق العرب ببني امية والتعزي بذكراهم في ايام المحن والاشادة بمآثرهم تهافت الشعراء على مدحهم والمجاهرة بحبهم وتفضيلهم على خصومهم من بني العباس حتى في ايام اعظم خلفاء هذه الاسرة وأشدهم بأساً كالمنصور والرشيد والمأمون وغيرهم وفي كتاب الاغاني والمجاميع الشعرية وكتب الادب كثير من هذه الاشعار والذكريات نقتصر منها هنا على مثالين يرجع احدهما الى خلافة المنصور اعظم خلفاء بني العباس وأقدرهم وهو ما حكاه الطبري وصاحب الاغاني عن الشاعر الضرير وحديثه مع المنصور قال «صحب المنصور رجلاً ضريراً الى الشام وكان يريد مروان بن محمد بشعر قاله فيه قال فسأله ان ينشدني فأنشده :

ليت شعري اقاح رائحة المسك وما أن اخال بالخيف انسي
حين غابت بنو امية عنه والياليل من بني عبد شمس
خطباء على المنابر فرسا ن عليها وقالة غير خرس
لا يابون قائلين وان قا لوا اصابوا ولم يقولوا بلبس
وحلوم اذا الحلوم استخفت ووجوه مثل الدنانير ملس

(١) كتاب الاغاني ١٦ : ٨٤ (من الطبعة الاولى)
(٢) كتاب الاغاني ١٧ : ٧٥

قال المنصور فوالله ما فرغ من شعره حتى ظننت ان العمى ادركني قال وحججت سنة احدى واربعين ومئة فنزلت على الحجاز في جبلي زرور امشي في الرمل لنذر كان عليَّ فاذا انا بالقرير فأومأت الى من كان معي ان تأخروا فتأخروا ودنوت منه فأخذت بيده فسلمت عليه فقال من انت جعلني الله فداك فما اثبتك معرفة فقلت رفيقك الى الشام في ايام بني امية وانت متوجه الى مروان فسلم عليَّ وتنفس ثم انشأ يقول :

آمت نساء بني امية منهم وبناتهم بمضيعة ايتام
نامت جدودهم واسقط نجمهم والنجم يسقط والجدود نيام
خلت المنابر والاسرة منهم فعليهم حتى الممات سلام

فقلت له كم كان مروان اعطاك فقال اغناني فلا اسأل احداً فقلت كم فقال اربعة آلاف دينار وخلع وحملان قلت وأين ذلك قال بالبصرة قلت اثبتني معرفة فقال اما معرفة الصحبة فقد واما معرفة النسب فلا فقلت انا ابو جعفر المنصور امير المؤمنين فوقع عليه الانكباء وقال يا امير المؤمنين اعذر فان ابن عمك محمداً صلعم قال جبلت النفوس على حب من احسن اليها وبغض من اساء اليها قال ابوجعفر فهمت والله به ثم تذكرت الحرمة والصحبة فقلت للصبي اطلقه ثم بدا لي في مسامرته رأي فأمرت بطلبه فكأن البداء ابادته[1] »

وهذا مثال آخر من ايام المأمون حكاه الطبري عن ابي حشيشة محمد بن علي بن امية ابن عمر قال « وكنا مع المأمون بدمشق فركب يريد جبل الثلج فمر بركة عظيمة من برك بني امية وعلى جوانبها اربع سروات وكان الماء يدخلها سيحاً ويخرج منها فاستحسن المأمون الموضع فدعا بزماورد ورطل[2] وذكر بني امية فوضع منهم وتنقصهم فأقبل عليه (الشاعر) على العود واندفع يغني :

اولئك قومي بعد عز وثروة تفانوا فألاَّ اذرف الدمع اكمدا ؟

فضرب المأمون الطعام برجله ووثب وقال لعلويه يا ابن الفاعلة لم يكن لك وقت تذكر فيه مواليك الاَّ في هذا الوقت فقال مولاكم زرياب[3] عند مواليَّ يركب في مئة غلام وانا عندكم اموت من الجوع ؟[4] »

هذه كانت علاقة الجيش والشعراء ببني امية اما عن تعلق الشعب على الاطلاق بهم

---

(١) مروج الذهب ٢ : ١٦٣ — ١٦٤ وكتاب الاغاني ١٥ : ٦٠ — ٦١
(٢) من قينات المأمون
(٣) زرياب مولى المهدي سار الى الشام ثم الى المغرب الى بني امية حيث اشتهر بحسن صوته وعلمه الالحان فنال عندهم منزلة عالية وقد ذكره صاحب كتاب الأغاني وبين فضله في نقل الموسيقى الشرقية الى الغرب (٤) الطبري ١٠ : ٣٠٠

لحدث ولا حرج فلو اردنا ان نجمع اخباره واحاديثه في ذلك لضاق بنا المقام وكيف لا يتفانى الشعب بحب هذه الاسرة وهي الاسرة العربية الوحيدة التي بلغت به اسمى درجات العز وجعلت اسمه مهاباً محترماً عزيزاً في اقاصي البلدان وأدانيها وعززت دينه الجديد ونشرته في ما فتحه من البلدان وغمرته بشرف العطاء وبما كانت تدر على بلاده الاصلية من المال الذي كان يحمل اليها من البلاد المفتوحة ثم هم لم يسمحوا لاحد غيره من الشعوب المغلوبة ان يقاسمه السلطة او يتحكم به كيف شاء كما كانت الاعاجم تتحكم به وبالخلفاء انفسهم في ايام العباسيين الذين لم يبق لهم من الحكم بعد المعتصم الا الاسم كما قال صاحب كتاب الفخري في الاحكام السلطانية

هذه هي الحقيقة الاولى التي توخينا بيانها على قدر ما تسمح لنا به المكان اما الحقيقة الثانية وهي ان بني امية لم يكونوا من الصفات على ما وصفهم المأمون والمعتضد وغيرهم من خلفاء بني العباس واتباعهم في نشراتهم واحاديثهم فيكفي للدلالة على ذلك شهادة اعدائهم والناقمين عليهم من العباسيين والعلويين وفي هذه الاخبار والروايات المبثوثة في كتب التاريخ والادب ما يدلك على ان بني العباس كانوا اذا اخلصوا يقرّون لخصائهم من بني امية بالتفوق حتى على انفسهم ويتقربون منهم بل من قوادهم وموالهم ويتمثلون احياناً بهم في اعمالهم وسياستهم ويقدرون عالهم حق قدرهم بل كانوا احياناً يدافعون عن اسمهم ويعاقبون من كان ينتقصهم ويطعن فيهم واغرب من ذلك ان كان بينهم من كان يميل الى حكم بني امية ويحن الى عاصمتهم وهذه بعض الادلة على ذلك نوردها بدون ترتيب تاريخي

***

حدث الطبري عن احمد بن يوسف بن قاسم قال سمعت ابراهيم بن صالح يقول « كنا في مجلس ننتظر الاذن فيه على المنصور فتذاكرنا الحجاج فنا من حمده ومنا من ذمه فكان ممن حمده معن بن زائدة وممن ذمه الحسن بن زيد ثم اذن لنا فدخلنا على المنصور فابتدى الحسن بن زيد فقال يا امير المؤمنين ما كنت احسبني ابقى حتى يذكر الحجاج في دارك وعلى بساطك فيثنى عليه فقال ابو جعفر وما استنكرت من ذلك ؟ رجل استكفاه قوم فكفاهم والله لوددت اني وجدت مثل الحجاج حتى استكفيه امري وانزله احد الحرمين قال فقال له معن يا امير المؤمنين ان لك مثل الحجاج عدة لو استكفيتهم كفوك قال ومن هم كانك تريد نفسك قال وان اردتها فلم ابعد من ذلك قال كلا لست كذاك ان الحجاج ائتمنه قوم فادّى اليهم الامانة وانا ائتمنتك فخنتنا »[1]

(١) ج ٩ ص ٢٩٨

وذكر في موضع آخر[1] ولد المنصور فقال « وعالية (ابنة المنصور) امها امرأة من بني امية زوّجها المنصور من اسحاق بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس » وحكى ان اسحاق هذا قال « قال لي ابي زوّجتك يا بنيّ اشرف الناس العالية بنت امير المؤمنين فقلت يا اباه من اكفاءنا قال اعداءنا من بني امية »

وتكلموا يوماً المنصور يذكر « صقر قريش » فسألوا امير المؤمنين من هو فقال « الذي راض الملك وسكّن الزلازل واباد الاعداء قالوا عمر قال ما صنتم شيئاً قالوا فمعاوية قال ولا هذا قالوا فعبد الملك بن مروان قال ولا هذا قالوا فمن قال عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر وقطع القفر ودخل بلداً أعجميًّا مفرداً فمصّر الامصار وجنّد الاجناد ودوّن الدواوين واقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدّ شكيمته . انّ معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلّلا له صعبه وعبد الملك نهض ببيعة تقدّم له عقدها وانها بطلب عترتي واجتماع شيعتي وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه »[2] وذكر صاحب مروج الذهب ان المنصور وهو ما تعلم من القوة والنشاط والحنكة في الامور « كان في اكثر اموره وتدبيره وسياسته متشبهاً بهشام في افعاله لكثرة كشفه عن اخبار هشام وسيره »[3]

***

ومدح يوماً الرشيد خادماً له أميناً وسأله ان يطلب ما يريد قال نتكلم وذكر حسن سيرته وقال السيّد والله يا امير المؤمنين سيرة العمرين قال فغضب الرشيد واستشاط واخذ سفرجلة فرماه بها وقال يا ابن اللخناء العُمَرَيْن العمرين العمرين هيا احتملناها لعمر بن العزيز افتحسبها لعمر بن الخطاب »[4]؟

وحكى ابن الاثير في تاريخه (٧ : ٣٩) ان المتوكل دخل في سنة ٢٤٤ (—٨٥٨—٨٥٩) مدينة دمشق وعزم على المقام بها ونقل دواوين الملك اليها وامر بالبناء بها » والى ذلك اشار يزيد ابن محمد المهلبي في شعره :

اظن الشام تشمت بالعراق اذا عزم الامام على انطلاق
فان يدع العراق وساكنيه فقد تبلى المليحة بالطلاق

وسبب ذلك على ما يظهر خوف الخليفة المتوكل من امراء الترك وجنودهم في بغداد

(١) ج ٩ ص ٣١٨—٣١٩
(٢) العيون والحدائق ٣ : ٢٢٥
(٣) » ٢—١٣٢
(٤) كتاب التعزي ص ٢٢٢

وعدم ثقته بكفاءته وكان لا يزال اكثرهم من الاعاجم او لعل ذلك كان ناشئاً عن ترجيحه لسياسة بني امية في اخذهم دمشق عاصمة لملكهم وهي بلد عربي وبحاط من كل الجهات بقبائل عربية او عن تنبه العاطفة القومية فيه مما اصابهُ من عبث الاعاجم في عاصمته ولحق به شخصيًّا من الاذى منهم كل ذلك مع بغضه لسلفه من الخلفاء جعل المتوكل يميل الى بني امية ومواليهم. فقد ذكر ابن الاثير (٧ : ٢٠) انهُ كان « يبغض من تقدمه من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق في محبة علي واهل بيته وانما كان يدنيهُ ويجالسهُ جماعة قد اشتهروا بالنصب والبغض لعلي منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي وابو السمط من ولد مروان بن ابي حفصة من موالي بني امية »

وذكر ابن الطقطقي ان الواثق كان يقول « اني استحي ان يكون في بني امية مثل عمر ولا يكون مثله في بني العباس »[1]

***

ونأتي الآن على شهادة للعلويين وهم كما يعلم القارئ كانوا ايضاً من الناقمين على بني امية لا لمذنب اقترفوه او لبدعة ابتدعوها بل لان الايام اظهرتهم ابعد نظراً واقوى على ادارة ملك عظيم منهم قال صاحب الاغاني ان عبد الله بن عمر بن عبدالله العقيلي جاء الى سويقة وهو طريد بني العباس وذلك بعقب ايام بني امية وابتداء خروج ملكهم الى بني العباس فقصده عبد الله والحسن ابنا الحسن فاستنشده عبد الله شيئاً من شعره فانشده قصيدته السينية في بني امية وختمها بهذا البيت :

فما انسى لا انسى قتلاهم ولا عاش بعدهم من نسي

قال فلما أتى عليها بكى محمد بن عبد الله بن حسن فقال له عمه الحسن بن حسن بن علي اتبكي على بني امية وانت تريد بني العباس ما تريد فقال والله يا عم لقد كنا نقشا على بني امية ما نقشا فما بنو العباس الا اقلّ خوفاً لله منهم وان الحجة على بني العباس لاوجب منها عليهم ولقد كانت للقوم اخلاق ومكارم وفواضل ليست لابي جعفر[2]

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٢٢—٢٢٣

(٢) وهناك شواهد اخرى لاعداء بني امية لا محل هنا لذكرها وكلها تؤيد رأينا في هذه الاسرة العبقرية وتحببها الى العرب مهما صدر عن بعض افرادها من الطيش وقصر النظر في عواقب الامور ولعلهم يتشوفون الى خروج « السفياني او الشهابي او المرواني او المعاوي » ليلم شعثهم ويجمع شملهم ويجدد عزهم ويحررهم مرة اخرى من اعاجم هذا العصر ...

بني امية هبو ا طال نومكم !